

الاديب العربي بين التراث والمعاصرة

بقلم عبدالكريم غلاب

اربعة من الباحثين تناولوا هذا الموضوع في المؤتمر الثامن للادباء العرب الذي عقد في منتصف ديسمبر اناضي وعكس ابحاثهم عدد يناير من الآداب.

امام الموضوع وممارسته نجد انفسنا في حيرة . فالذين حددوا الموضوع ليتناولوه المؤتمر بالدرس كانوا مجازفين بموضوع عام يضع قضية وهمية اكثر منها حقيقية . ومن ثم وقسح الذين تناولوا الموضوع بالدراسة في الفخ . وكان عليهم ان يخرجوا القضية من اطارها الوهمي ليجعلوا منها قضية جادة تستحق الدراسة والبحث وتقديم تقرير عنها الى مؤتمر هام .

قضية التراث والمعاصرة قضية وهمية لان احدا لا يستطيع ان ينكر التراث الا اذا كان غير جاد وان احدا لا يستطيع ان ينكر المعاصرة الا اذا كان غير جاد . واستغلال التراث والمعاصرة في معركة المصير قضية ممارسه في غير ما حجة الى بحث يصدر عنه المؤتمر توصيات .

ولكن الموضوع وضع في فائمه ابحاث المؤتمر وكان من الذين تناولوه بالبحث اربعة من الباحثين من اربعة انظار عربية هسي سوريا ومصر والجزائر والمغرب . وكلها اسهمت في التراث العربي وكلها تعنى ببعثه واحيائه والاستفادة منه . ولذلك انعكس التفكير في التراث على ابحاث الكاتبيين ، فتناولت ابحاثهم قضايا بعضها مهم وكثير منها اولى بدائي ، ولكن اغلبها غير في موضوع في القضية المعروضة على المؤتمر .

ويمكن ان نلخص النتائج التي وصل اليها الكتاب الاربعة فيما يلي :

- نهي ذاتنا ونعرف من نحن ، ونحصر ما عندنا من مقدرات وممكنات ، ونحدد الظروف والملابسات التي احاطت وتحيط بنا ونرسم على ضوء ذلك الاهداف ووسائل تحقيقها . وذلك بتحليل واقعنا والمرحلة التاريخية والحضارية التي نجتازها ، ثم بالبحث عن الاصيل من تراثنا لتدعيمه وتطويره وادمج الصالح منه مع حاضرنا .

- ناخذ من فكر العرب ومن جميع ثقافات العالم وحضاراته القديمة والحديثة ما هو ايجابي وما من شأنه ان يقوى فكرنا السوري .

هل يوجد في تراثنا جانب ايجابي يمكنه ان يخدم قضايانا ومعركتنا المصيرية ؟ وكانت الاجابة هي ان البحث في التراث ينبغي ان يوجه للكشف عن كل ما يعزز الحرية كاداة والثورة كاسلوب والوحدة التي هي سبيل المواجهة والنضال والنصر .

- تتأكد ايجابية التراث في المعركة والقضايا المصيرية ، كما تتأكد ضرورة الافادة الفورية من هذه الايجابية لتجميع القوى المادية والمعنوية لامكان المواجهة .

تلك هي النتائج الاساسية التي انتهى اليها الدكتور عباس الجراري من المغرب في بحثه . اما الاستاذ احمد يوسف داود من الجمهورية العربية السورية فقد وصل الى نتيجتين :

- العظة التاريخية التي يجب علينا ان نحملها هي ان علينا

ان نساهم من جديد في هدم امبراطوريات الاستعمار المعاصرة من خلال العمل على اقامة دولة الوحدة ذات المضمون الاشتراكي العادل . والالتزام بهذه الموضوعية بشكل مهمة اساسية للاديب وللادب ، اخلاقية بقدر ما هي مصيرية .

- تراثنا الادبي كان صورة صادقة عن المعطيات التاريخية المستجدة والعقلية الاجتماعية المتراكبة من جماع التأثيرات الناجمة عن تلك المعطيات . ونحن لا نرفض التراث او نقبله الا من خلال ما يقدم من دفع لحركة التقدم . ولست اعني بقبوله اعادة نسخة وتوثيقه فلا نخرج عنه في ادبنا الجديد . وانما اعني بذلك فرز الاشعاعات المضيئة فيه واعتبارها وحدها المثلة لروح شعبنا واصلته في هذا الماضي .

ونتيجة واحدة يصل اليها الاستاذ حنفي بن عيسى من الجزائر انت في نهاية بحثه :

- ان عيوننا ينبغي ان تكون مفتحة قبل كل شيء على تراثنا القومي . فكل ما يلهج به الشعب من اغان وامثال وحكايات وقصص تروي البطولات ، كل ذلك ينبغي ان يعتبر من الروافد الزاخرة التي تصب في نهرا الخالد ، الا وهو لغة الضاد .

اما الاستاذ عبدالعزيز الدسوقي فقد وصل الى النتائج الآتية:
- التراث العربي هو اكمل وانضج ما ورثنا عن الآباء والاجداد في مجال الادب والعلم والفن والحضارة .

- الاديب المبدع وكذلك الناقد والمفكر كل منهم مجهز بحاسة فنية نمزج الماضي بالحاضر وتضهر ما يفعل به من التراث مع ما يفعل به من ثقافة العصر .

- الحياة الادبية والفكرية في اشد الحاجة الى مزاج من القديم والجديد ، في حجة الى التراث والمعاصرة .

ذلك كل ما يمكن ان نستخلصه من نتائج عن موضوع الاديب بين التراث والمعاصرة في معركة المصير . وهي نتائج هزيلة تضافر في الوصول اليها اربعة من الباحثين من سوريا حتى المغرب واستغرق البحث منهم ثلاثا واربعين صفحة من وثائق المؤتمر .

والغاريء لهذه الابحاث يشعر بان الكاتب وجد نفسه فيها في شبه حرج . ذلك ان عنوان الموضوع يفري ، ولكن الافكار التي يمكن ان يصل اليها الباحث ستكون مستهلكة او على الاقل بسيطة ليست بذات خطر كبير . ولهذا ذهب كل منهم في اتجاه يردد بعض الحقائق الاولية البدائية تاريخية او فكرية او ادبية او فلسفية او قومية ويفلسفها بشكل قد يكون مفيدا ، ولكنه لا يتصل بموضوع البحث من قريب ، وربما من بعيد .

فالدكتور الجراري مثلا غرق في التفريق بين الذين ينكرون قيمة التراث ، ويرون ضرورة الانطلاق من روح العصر والواقع ونبتذ التراث عامة ، وبين الذين يرون الافتصار على التراث العربي والتمسك الاعمى بروح السلف والتحفظ تجاه ما يقدمه الغرب على انه اسعماري ، وبين الذين ينطلقون من الاعجاب بالغرب ويرى تراثه كل شيء وانه المنحى الوحيد .

وهذه صور عقلية منطقية فرق الباحث في تفسيرها والرد عليها رغم انها لا نمت للواقع الفكري ازاء التراث والمعاصرة بشيء . واذا كان هناك حقا من ينكر كل قيمة للتراث او من يعتبر الغرب كل شيء فليست لهؤلاء اولئك قيمة فكرية تستند الى نظرية سليمة يمكن ان يشغل المؤتمر نفسه بها ، وبالتالي تاخذ من احد ابخانه نصيبا موفورا .

ومثل هذا البحث الجانبي نجده عند الاستاذ الدسوقي الذي بدأ منذ خلق الله آدم فتساءل - كما يتساءل استاذ الصفوف الاولى من الثانويات - ماذا نعني بالاديب ؟ هل هو الاديب المبدع او يشمل

الناقد الباحث والمفكر المتفلسف ليخلص من ذلك الى ان كلا منهم يعزج بين التراث والحاضر ، وتساءل ايضا بنفس المنهج - ماذا تعني بالتراث العربي ؟ ليجيب بعد دورة واسعة البعد : هو اكمل وانصح ما ورتنا عن الآباء والاجداد في مجال الادب والعلم والفن والحضارة .

ومثل هذه الجانبيات ايضا ما نجده عند الاستاذ حنفي بن عيسى من مقدمات لا سبيل الى ربطها بالموضوع ، واهمها البحث في الحاضر هل له وجود ، او هو فقط لحظة صيرورة بين المستقبل والماضي ، ولذلك فالمضارع في العربية لا يعني الا المستقبل .. ؟

وفكرة الزمان ، او الماضي والحاضر والمستقبل ، اخذت ايضا من بحث الاستاذ الجراي الكثير من الجهد والوقت والورق ..

والالتجاء الى الجانبيات هو الذي دفع ايضا الاستاذ احمد يوسف داود الى تركيز ثلاثة ارباع البحث على موضوع قومي هو الاستعمار واثره في الوطن العربي ، ولو انه خرج من هذه المقدمة الجانبية الطويلة بحثا الى ان يضع المواطن العربي ، الذي يعيش على هامش المرحلة الحضارية الراهنة ، في ازمة اختيار بين ان يعيش بأسلوب مزور جاعلا من تقيعات المتقدمين مثلا أعلى له وبين ان يردد الى الماضي باحثا عما يمكن ان يشيع الحاجة النفسية المتولدة ويرضي طموحها .

والابحاث الاربعة مليئة بالجانبيات والافكار المسلمة والحفائق العادية البسيطة الاولى مثل ما نجد عند الدكتور الجراي من ان العرب انفسهم واجهوا المعادلة بين التراث والمعاصرة عند الاتصال بالاسم الاخرى بعد عصر الفتح الاسلامية ، ومثل ما اجهد فيه نفسه ليثبت ان الارتباط وثيق بين الماضي والحاضر والمستقبل في علاقة جدلية تجعل الماضي منعكسا على الحاضر ومؤثرا في المستقبل . ومثل هذه الحقيقة الاولى : الانسان مهما حاول ان يصل الى تحقيق وجوده من خلال صراع ذاتي وانطلاقا من الواقع المعاش فانه لن يستطيع ذلك بعيدا عن الناس وعن العالم وعن الوجود الانساني الزاخر بالتجارب والمواقف .. ترى من يزعم غير ذلك ؟

ثم ما اخذ به الاستاذ الجراي نفسه من تحليل طويل - وهو جيد في حد ذاته - لافكار : الحرية والثورة والوحدة ليوضح لنا ان التراث الادبي والفلسفي عامل ايجابي لذكاء روح الحرية في نفوسنا . وليطيل في اهمية الفكر الثوري وليدلنا في الاخير على ان الوحدة ضرورة عصرية تقتضيها ظروف المعركة بعد ان جال جولة طويلة في وحدة الشعوب العربية والاوربية على السواء ..!!!

ثم ما صلة التراث والمعاصرة وموقف الاديب بينهما في معركة المصير بالبحث في فكرة الوطنية وظاهرة القومية وهل عرفها العرب او لم يعرفوها الا بعد اتصانهم باوروبا .. ؟

ان الموضوع كان اضيق من ان يتسع الى كل هذه الاستطرادات التي تناولها الدكتور الجراي في بحثه . وان كنت اؤكد انه تناولها بطريقة جيدة وبأسلوب محكم .

وتاني الاستطرادات والجانبيات بشكل مفرغ في بحثي الاستاذين : الدسوقي وابن عيسى . فالاستاذ الدسوقي لا يستكثر ان يشبه الصراع بين التراث والمعاصرة بالخلاف القديم بين الجديد والقديم ليأخذها مناسبة ليتحدث لنا فيها عن الجديد والقديم ، وليخرج بنتيجة (مهمة) وهي ان الحياة بكل مظاهرها بحاجة الى تلازم القديم والجديد ، وهما عنصران هامان من عناصر الحياة ..!!!

اما الاستاذ ابن عيسى . الذي كان بحثه مجموعة مقدمات - فلم يستكثر ان يتحدث لنا عن ادب الارتزاق ، وادب الاستهلاك على غرار صناعة الاستهلاك ، والادب المصنع ليدعو الى ادب الظروف الطارئة او ادب الاحداث الجسم ، وليتحدث لنا عن مختلف انواع الثورات - التي خاصتها الجزائر - كالثورة المسلحة والثورة الثقافية والثورة الزراعية والثورة الصناعية . وليرشدنا الى ان « المعاصرة تتطلب القراءة المنوعة ، وان المطالعة اصيحت من اوكيد الواجبات بالنسبة الى معركة المصير .. وان الادباء ينبغي ان يقوموا بدور اساسي في التوعية وحتى في محو الامية ومقاومة الخرافات ... الخ .. الخ .

ثم ان هناك افكارا القيت كمسلمات لنا رأي فيها .

يقول الدكتور عباس الجراي مثلا : « نجد ان تجربتنا التاريخية في الماضي البعيد والقريب هي الاطار الذي يستطيع بلورة هذا الواقع على الشكل الذي يمكننا من التخطيط لمستقبل يفتنه الماضي باضافات دون ان يفقده جنته وابداعيته . واخشى ان لم نفعل ذلك ان تقع في الارتجال والاعتراب والاستلاب لفكر وحضارة القوى التي تفرض سيطرتها ونفوذها علينا » .

وهي صرخة حماسية اكثر منها علمية . لقد كان يدافع عن الالتفات الى التراث فاذا به يجعل من التجربة التاريخية الاطار الذي يبلور الواقع ويمكن من التخطيط للمستقبل . اما ان تعني بالتراث كنتاج علمي وفكري وفني وحضاري ونسئلهمه ونحیی نماذجه ونربط سلسلة هذا الماضي الجيد بالحاضر والمستقبل فنعم . واما ان تكون تجربتنا التاريخية اطارا يبلور الواقع ويخطط للمستقبل فذلك ما لا استطع قبوله ، لانه اعتماد اكثر من استلهم ، وتحمله مسؤولية ضخمة لا اظن انه - وهو الماضي المنتهي - يستطيع القيام بها .

والاستاذ حنفي بن عيسى يكرر كلاما اوحى لي بانه يعيش في عقدة من الحضارة والمعاصرة والادب الاجنبية ، ويكاد يوحي بان الالتصاق بالتراث هو المهمة الاولى للمثقف العربي . ففي الصفحات الاولى من البحث يقول بالحرف : « وهذا الموقف من الحضارة المعاصرة له عواقب وخيمة في مجال الادب . فهذه العقلية السائدة عندنا في التباهي بمصنوعات غيونا والتنافس على كسبها جعلت منا شعبا يستهلك منتجات الحضارة .. » وتلح عليه الفكرة حتى انه ليصرح : « وانا اقول بان عيوننا ينبغي ان تكون مفتحة قبل كل شيء على تراثنا القومي .. » ويقول ايضا : « .. ان هذا النوع من التفتيح له محاذير اهمها ان الخارج هو دائما مصدر لحمولات التفضيل .. !! » واذا كان مع ذلك يدعو الى التفتيح على الخارج فسان اطلاق هذه الاحكام المسبقة يوحي بان صاحبها يعيش في عقدة من كل ما هو اجنبي . ويقطع النظر عما توجيه عقدة الخوف هذه من عدم التفتيح على الحضارة الحديثة والادب الاجنبية فانها تشعر بانعدام الشخصية فلن تكون للعالم الخارجي خطورتها الا اذا انمحت شخصيتها او كنا في غيبة عن ادراك ذاتنا . ثم انها توهي بالانكماش والانزواء . وذلك هو سبب النكسة التي اصابت حضارتنا العربية الاسلامية في الوقت الذي انمعت فيه حضارة الغرب متفتحة على حضارتنا وحضارة الاخرين بواسطتنا .

وبعد : فقد سمعنا وقرانا الكثير عن التراث فيه افكار مهمة وخاصة عند الجراي وداود ، وفيه مسلمات وافكار عادية اولية عندهم جميعا . ولكنهم لم يتناولوا الموضوع الاساسي الا برفق . وكنت انتظر ان يركزوا على الرأي في تناول التراث واستغلاله في الادب الحديث وفي معركة المصير على الاخص ، ولكنهم لم يفعلوا

على كل كاتب تقني ان يهتم له ويناقشه بأسلوب يعتمد المنهجية العلمية في التفكير وطرق الاقتناع المنطقي والنقاش المستمر من داخل الافكار الجديدة نفسها لا من جانب النظرة المعادية لها كما جرت العادة .

ومن هنا فان الذين حضروا المؤتمر الثامن للادباء العرب الذي انعقد مؤخرا في دمشق قد حمدوا للذين اشرفوا على تنظيمه ادراجهم موضوع التراث بين الموضوعات التي استحسن ان يعالجها المؤتمرون ، وحمدوا لهم بصورة خاصة ادراجهم اياه على هذا النحو : « الاديب العربي بين التراث والمعاصرة في معركة المصير » .

قدم في الموضوع ابحاث اربعة كتبها الاساتذة : احمد يوسف داود عضو الوفد السوري وعبد العزيز اللسوقي عضو الوفد المصري والدكتور عباس الجراري عضو الوفد المغربي وحنفي بن عيسى عضو وفد الجزائر .

ولا يحتاج الناظر في مضمون هذه الابحاث الى ان يقف عندها طويلا ليدرك قيمة كل منها بالنسبة للاخر وقيمتها بالنسبة للموضوع . فالذين استمعوا اليها او تمكنوا من قراءتها كان لديهم شبه اجماع على ان بحث الدكتور الجراري يأتي في طليعتها من حيث وضوحه وغناه واستيفاه لجميع الجوانب ومنهجته وتركيز الافكار فيه وحسن عرضه وتربط عناصره ونفاذ صاحبه الى جوهر الحقيقة واجابته عن جميع الاسئلة التي يمكن ان تعرض لمن يبحث في موضوع كهذا .

ينطلق الدكتور الجراري في بحثه من تصوير الواقع الذي نعيشه في مختلف انحاء الوطن العربي ويرسم الخطوط الكبرى لكييفية الخروج منه وتغييره ، ولا ينسى وهو يرسم خطوطه هذه ان يشير الى ان نظر الادباء الى الوسائل التي يمكنهم اتباعها لوضع خططهم موضع التنفيذ غير موحد ويختلف فكريا باختلاف رؤاهم وانقسامهم في مثل الحلول .

ويصل من هذا الكلام الى قضية الموقف من التراث وانقسام الادباء حوله بين واحد يجد فيه وحده سبيل الخلاص وآخر يتنبذه وتآلت يقف منه موقف من يدعو الى المزاجية بين الاصيل منه والصالح من تراث القرب على ان يكون النظر فيهما من خلال شخصيتنا وفكرنا لا تقليدا لموقف الاخرين وعلى ان يكون انطلاقنا من واقعنا ... ويتبنى الدكتور عباس الجراري الموقف الثالث رافضا الرايين الاولين مع تعليل لاسباب الرفض شارحا نظريته التي على اساسها اتخذ موقفه بالبيعة تنم عن ذكاء وفطنة ملحوظة ووعي لسيروية التاريخ .

ان التراث العربي في نظر الدكتور الجراري ليس هو كل الماضي او ما صدر عن الاجداد دون تحديد ، ولكنه الجانب المضي منه . وهو كذلك الجانب الذي يمثل انماطا من وعي الانسان العربي ومراحل من واقعه ووجوده الفردي والاجتماعي خلال التاريخ ويعبر عن ذاتيته وتجربته ويعطيه مميزات . . . واذا كان هذا التراث غنيا في فترات ازدهار امتنا فانه ناضب في فترات التقهقر حيث تعرض لهزات اخطرها تفكك الامة العربية وانقسامها والتدخل الاجنبي الذي فرض وجوده عليها وما نتج عن ذلك من انهيار عام شيا الانسان العربي وطبع فكره بالجمود والسكونية . . الامر الذي افسح المجال لبعض الباحثين لان يدعوا للمعاصرة في مفهومها الضيق اي الى مساواة العصر والتفاعل معه وتجاوز الماضي واعتبار الحاضر وحده البعد الزمني للانطلاق .

يناقش الدكتور الجراري هؤلاء الداعين الى المعاصرة بقوله : ان

وكننت انتظر ان يعرضوا للنماذج الادبية وللادباء الذين استغلوا التراث العربي والاجنبي في الادب الحديث ليلمسوا مدى اسهام هذا الادب في معركة المصير او عدم اسهامه . وما من شك في ان الكثير من الادباء : شعراء وكتاب استغلوا التراث واستفادوا منه منهم هيكل والفساد وشكري وشوقي وطه حسين وتوفيق الحكيم من الجيل الماضي ، ومنهم نجيب محفوظ والبياتي وصلاح عبدالصبور من الجيل الجديد ، فهل كانت التجربة هادفة موجهة ام كانت تجربة عشوائية تستهدف التلويح الادبي واجترار الافكار والصور؟ ذلك مالم يدخل في حساب الباحثين عن : الاديب العربي بين التراث والمعاصرة في معركة المصير .

الرباط (المغرب) عبدالكريم غلاب

الاديب العربي بين التراث والمعاصرة

بقلم احمد ابو سعد

التراث العربي تعرض في السنوات الاخيرة لحملة جانحة قوامها التنكر له ودفنه واطلاق الرصاص عليه .

والحق ان الحملة على التراث او الهجوم عليه ليس بالامر الجديد، فقد سبقت هذه العترة دعوات بشر بها في العشرينيات من هذا القرن كتاب معروفون هدفوا الى قطع الصلة بالمغرب وتراثهم ووجهوا الانظار الى الغرب وحضارته والنهل من ينابيعها وحدها .

ولكن هذه الدعوات اصطدمت في الماضي بحصون امتنع تفويضها على المبشرين اولئك ، لا سيما قبل فترة التحرير التي كان التمسك فيها بالتراث تسكنا بمقومات الوجود وعنصرنا من عناصر مقاومة الاجانب المحتلين وحفزا لقوى الشعب ان لا تضعف امام الاجنبي وفزواته الفكرية .

بيد ان البلاد العربية بعد ان نال قسم منها الاستقلال وخطا خطوات واسعة في مجال التقدم قد عادت فيها الى الارتفاع اصوات « المعصرة » والانفكاك من اسار الماضي ، ومد في شأوها اخيرا نفس جديد استنده اصحابها من كارثة الخامس من حزيران التي كانت فرصة ذهبية نادرة لكراهي التراث العربي لان يرفعوا عقيرتهم ويعملوه مسؤولية الهزيمة ويخرجوا منها المسؤولين الحقيقيين براءه .

وقد انجرف في هذا التيار فئة غير قليلة من الجيل العربي الشاب الذي رجح الهزيمة عقله وعطلت تفكيره ودخل ساحته ابطال جدد ممن يتبنون نظرية « الرفض » ويدعون بان طريق النهوض يجب ان يكون في خبط معاكس للماضي .

وقد استفحل في الآونة الاخيرة امر هذه الفئة واشتد ، واصبح يخشى من تأثير اصحابه على الناشئة لما يحملونه من شعارات ثورية تفري الناس ، لا سيما وان الكثيرين من القائلين بنظرية الرفض هم في مركز القيادة من حيث توجيه الرأي العام ، الامر الذي بات يفرض